العرب والحركة السياسيّة الناشئة في العالم

كي لا نظلّ ندعو للموت واقفين أو راكعين

. قاسم عزّ الدين* .

جذر الأزمة السياسيّة العربيّة

أثارت مجازرُ الإبادة التي يتعرّض لها الشعبُ الفلسطينيّ غضبًا شعبيّاً عارمًا. وعبّرت القوى السياسيّةُ العربيّةُ، بدورها عن احتجاجها العفويّ، فخاطبت الفلسطينيّين خطابًا أظْهر مواهبَ غيرَ عاديّة في الرثاء والمدح والهجاء، كما طالبت الحكّامَ العربَ («لإحراجهم!») بقطع العلاقات واستخدام سلاح النفط؛ بل ذهب أكثرُها حماسًا في الخطابة إلى الدعوة إلى تحريك الجيوش لنجدة إخواننا المستغيثين بالمعتصم وصلاح الدين.

إنّ الاحتجاج الشعبيّ العفويّ هو السلاح الوحيد الذي تَمْلكه الفئاتُ الشعبيّةُ العربيّةُ حاليّاً للضغط على أصحاب القرار. وهو في الوقت نفسه استفتاءٌ على تحليلات القوى السياسيّة العربيّة التي تبرِّر أزمةَ العمل السياسيّ بانكفاء الحركة الشعبيّة. لكنّ احتجاج القوى السياسيّة العربيّة العفويّ هو **جذرُ** الأزمة السياسيّة. وهو يُسْهم مرّةً أخرى في ذرّ الرماد في العيون، وصبِّ الماء في طاحونة الأنظمة العربيّة التي تُتْقِن الإفادةَ من الاحتجاجات العفويّة، فأوعزتْ إلى إعلامها بأن يحتجّ ويندّد، واستطاعت بذلك «توحيدَ» العرب في مطالبة الشعب الفلسطينيّ بأن يموت مطمئنّاً إلى تحقيق إنجاز وحدة الصف العربيّ المحتجّ.

لقد أخفت هذه المأساةُ مسؤوليّةَ الأنظمة العربيّة عن خياراتها السياسيّة، وجعلتْها أكثرَ تماديًا في السياسة نفسها، وأكثرَ انفلاتًا في الانصياع إلى رغبة الإدارة الأميركيّة من أجل توثيق التحالف مع استراتيجيّتها السياسيّة. فقد أظْهرت الأنظمةُ أنّ مبادرتَها في بيروت هي تلبيةٌ لنداء الاستغاثة في فلسطين ولكنّها موجّهةٌ إلى الرأي العام «العالميّ.» وأوْحتْ أنّ ما تقدِّمه لأميركا وإسرائيل من تنازلات إستراتيجيّة، تبدأ بالتطبيع، هو تعويضٌ لما يمكن أن تتنازل عنه إسرائيلُ في فلسطين. غير أنّ واقع الأمر هو أنّ الأنظمة أخذتْ تتحسّس رؤوسَها أمام مجازر بوش وشارون. وقد فَهمت العِبرةَ من المذابح بأنّ الإدارة الأميركيّة مصرّةٌ على أن تَنْخرط تلك الأنظمة هي أيضًا بفعّاليّة في حلف «الخير» العالميّ، من دون شروط أو تردّد: فالأراضي العربيّة محتلّة بالقواعد العسكريّة، والنفطُ قد جرى الاستيلاءُ عليه منذ غزو العراق، ولم يبقَ غيرُ أمور السياسة والاقتصاد «عالقةً» بانتظار حلّ مشكلة الشرق الأوسط. واعتبرتْ واشنطن أنّ تردُّدَ الأنظمة العربيّة في تسخير هذه الأمور لتدعيم حلف الخير هو الذي أدّى إلى الإرهاب العالميّ في نيويورك وشَجَّع الإرهابَ الفلسطينيَّ، وأنّ على الأنظمة العربيّة أن تتحمّل عواقبَ تردُّدها وأن تُسْرع إلى الغفران قبل أن يَضطرّ ملاكُ الخير إلى تقديم يوم الحساب.

قمة بيروت والمراحل الأخيرة من الشرق المعولم أميركيّاً

انصاعت الأنظمة إلى الغفران في بيروت، وهي تُدْرك أنّ جلَّ ما تتنازل عنه واشنطن وإسرائيل هو إدارةٌ ذاتيّةٌ مقطَّعةُ الأوصال مقابلَ حماية الأمن الإسرائيليّ. فالمبادرة السلميّة (مبادرة الأمير عبد اللّه) هي مجرّد تصريح بالسياسة القائمة أصلاً، لكنّها حَملتْ عنوانَ مرحلة جديدة في توطيد التحالف الرسميّ العربيّ مع الولايات المتحدة. وفي هذا السبيل بدأتْ مفاوضاتٌ ماراتونيّةٌ مع واشنطن لإنجاز المراحل الأخيرة من بناء الشرق الأوسط المعولم أميركيّاً، أهمُّ سماته:

١ ـ إدارةٌ ذاتيّةٌ للفلسطينيّين في مخيّماتهم وبَلْداتِهم المحصورة والمحاصرة، يَحْكمها سياسيّون محبّون للسلام والخير وأجهزةُ مخابراتٍ تُشْرف عليها الإدارةُ الأميركيّةُ لحماية الأمن وقمع الشرّ.

---

* ـ باحث لبنانيّ مقيم في باريس. ناشط في دعم القضيّة الفلسطينيّة وفي مناهضة العولمة الليبراليّة.

٢ ـ توقيعُ اتفاقات الخير مع كلّ «أمة» عربيّة على حدة، تَحْفظ لحكّامها الأمنَ وحقوقَها الخاصة من تعميم الخير وبحبوحة التجارة الحرّة في بلادها.

٣ ـ تكليفُ إسرائيل برعاية هذا الخير المعمَّم، ومساعدتُها على نشره في كلّ ربوع الشرق الأوسط

هذا الشرق الأوسط المعولم ليبراليّاً حَضَّرَتْ أرضيَّتَه الإدارةُ الأميركيّةُ في إطار النظام الكونيّ الجديد، وأقرّتْ سياستَه في كلّ الاتفاقيّات العالميّة للتجارة الحرّة، وأفْضى إلى تعزيز دوْر إسرائيل الإستراتيجيّ في كلّ السياسات الاجتماعيّة والاقتصاديّة على مستوى المنطقة العربيّة برمّتها. وقد وَقّعت البلدانُ العربيّةُ على هذه السياسات والاتفاقيّات، وكان آخرَها إقرارُ قمّة بيروت لاتفاقيّة خصخصة الخدمات وتسليمُها بحكم الأمر الواقع إلى الشركات المتعدّية الجنسيّة المتخصّصة في السيطرة على المياه والكهرباء والصحّة والتعليم وغيرِ ذلك.

صحيح أنّ رغبة الأنظمة لا تلتقي في المسألة الفلسطينيّة مع فلسفة السياسة الأميركيّة ـ الإسرائيليّة. فالأنظمة العربيّة تفضّل إنشاءَ شكل من أشكال الدولة الفلسطينيّة على غرار أيّ دولةِ مَوْزٍ في العالم: كما تفضّل أن تُحتَرَم هيبتُها، أمام رعاياها، في العلاقات العربيّة ـ الأميركيّة. غير أنّ الرغبات والنوايا لا تَزِنُ مثقالَ ذرّةٍ في العلاقات الفعليّة بين الدول. فقد توغّلت الأنظمةُ في تبعيّتها لأرضيّة الشرق الأوسط المعولم، وتشابكتْ مصالحُها الخاصة مع السياسة الأميركيّة في هذه البقعة من العالم، وهي تَرْهن نفسَها بتدفق «الاستثمارات» الكاذبة. لذا فإنّ الرغبات التي أَعْلنتْ عنها مبادرةُ بيروت لإنجاز عمليّة بناء الشرق الأوسط المعولم هي مجرّدُ شروطٍ نفسيّة واهية ستتكفّل المباحثاتُ مع واشنطن بتهذيبها وإعادتها إلى الواقع. فالأنظمة أقرّت في اتفاقيّات التجارة الحرّة موعدًا عامَ ٢٠١٠ لتطبيق الليبراليّة الكاملة في المنطقة العربيّة، وفي هذا الموعد ستكون جاهزةً لتطبيق الليبراليّة السياسيّة الكاملة مع إسرائيل وفقَ ما يَقْتضيه هذا من حريّة كاملة للقويّ ومن حرمان المجتمعات الضعيفة من كلّ الحقوق. وليس مستبعدًا أن يَحْتاج هذا الأمرُ مجازرَ أخرى في فلسطين وانعكاساتٍ أمنيةً وسياسيّةً في هذا البلد أو ذاك.

أين القوى السياسيّة العربيّة؟

لا تَرْتبط مصالحُ القوى السياسيّة العربيّة بمصالح واشنطن وإسرائيل الإستراتيجيّة. لكنّها لم تستطع أن تعمل على تحويل معارضتها إلى فعل معوِّق لهذه المصالح. بل لا يبدو عليها استعدادٌ للوقوف أمام أزمتها السياسيّة، على الرُّغم من أنّها ترى أمام أعينها تحرُّكًا جماهيريّاً واسعًا في كلّ البلدان العربيّة، وصمودًا بطوليّاً من الشعب الفلسطينيّ، وقفزةً نوعيّةً من حركة المشاركة في كلّ بلدان العالم. وظلّت معارضتُها عفويّةً في حركتها، عاجزةً عن تلمُّس رؤية سياسيّة ناهيك عن بلورتها وتفعيلها. والحال أنّ هذه الأزمة تَضْرب جذورَها في عمق الفكر السياسيّ الذي تَعْمل بمقتضاه التيّاراتُ السياسيّةُ العربيّةُ، الإسلاميّةُ والديموقراطيّةُ على السواء. فهي لا تفكّر في امتلاك أدوات عمل سياسيّة تمكّنُها من الارتقاء من ردود الفعل إلى الفعل في الأحداث، أو هي مصرّةٌ على تجاهل طبيعة التحوّلات العالميّة وطبيعةِ المستجدّات الإستراتيجيّة والاجتماعيّة في المنطقة العربيّة. وقد جعلها ذلك القصورُ وهذا التجاهلُ عاجزةً عن رؤية حلقات القوّة والضعف في الصراع، وجَعَلَها ـ من ثمّ ـ على هامش هذه الحلقات

كلُّ طرف من القوى السياسيّة العربيّة يَسْتند بطبيعة الحال إلى ما يدور في رأسه من أفكار سياسيّة. لكنّ هذه الأفكار منقولةٌ من مراحل تاريخيّة سابقة. وقد حَمَلَتْ معها تلقائيّاً **أدوات عملٍ** سياسيّةً منقولةً بدورها من الماضي،

انصاعت الأنظمة إلى الغفران في بيروت، وأقرّت قمّة بيروت اتفاقيّة خصخصة الخدمات

اعتبرتْها هذه القوى بدهيّاتٍ أبديّةً خالدةً في كلّ زمان ومكان أو اكتشافًا خاصّاً ابتدعه هذا التيّارُ السياسيُّ أو ذاك. بين هذه الأدوات: خطابٌ ثقافويّ يقوم على نشر الحقائق الأوليّة في سبيل التحريض والاستنهاض. وبينها أيضًا الرفضُ والتنديدُ والاحتجاجُ والتظاهرُ. وبينها أخيرًا إقامةُ التجمُّعات والجبهات السياسيّة، التي يُفْترض بها كلُّها خدمةُ رؤية سياسيّة قوامُها في الحالة الراهنة: توعية الحركة الشعبيّة وتحريضها على الوقوف في وجه المخططات العدوانيّة؛ وفضْحُ سياسة الأنظمة أو مساعدتُها على الصمود في وجه العدو القوميّ (حسب سياسة التيّار)؛ وإنشاءُ أحزاب قويّة تلتفّ حولها الجماهير؛ والوصولُ إلى السلطة. فإذا استطاع طرفٌ من أطراف القوى السياسيّة تحقيقَ إنجاز من هذه الإنجازات قَرَعَ طبولَ الثورات الظافرة. وإذا ذُبح شعبٌ ودُمّرتْ بلادٌ من غير أن يَسْتطيع أحدٌ التأثيرَ، فإنّ القوى السياسيّة تُراهن على بشائر المستقبل واستمرار الإرادة وتصرّ على عدم مقاربة فكرها السياسيّ بالنقد أو المراجعة، بل تَسْتخلص، في أغلب الأحيان، أنّ الأحداث جاءت تؤكّد صحّةَ تحليلاتها وتوقُّعاتها!

إنّ المرحلة التاريخيّة الحاليّة التي تعيشها مجتمعاتُ الكون ومجتمعاتُنا جعلتْ ما كان بدهيّاً في صراع الدول والشعوب أقلَّ بداهةً. فقد عَمَّقتْ ترابطَ المصالح بين السلطات المحليّة والمتحكّمين في مصائر الكون. وغَيَّرت الأسسَ التي كانت تقوم عليها المجتمعاتُ، سواء في علاقات الفئات الاجتماعيّة بعضها ببعض أو في علاقة الشعوب والدول. وأفْضى ذلك إلى أن تصبح طرقُ التغيير والتأثير مختلفةً عمّا كانت عليه في المراحل التاريخيّة السابقة. وبات الخطابُ «التعليميُّ» المعهودُ أقلَّ من مستوى وعي كلّ الناس. كما أصْبحت الأُطرُ التنظيميّةُ المعروفة والمتداولة قاصرةً عن تفاعل الطاقات البشريّة وتحويلِ حركتها إلى فعلٍ سياسيٍّ مؤثّر.

لقد وَضَعت التحوُّلاتُ العالميّةُ الكبرى الرؤيةَ السياسيّةَ «المحليّة» في نفق ضيّق مسدود، إذ إنّها أعادت خلطَ وتركيبَ كلِّ القضايا الوطنيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة وجعلتْها في يد نظام كونيّ يتسلّح بإيديولوجيا كونيّة تَشْمل كلَّ أوجه الحياة والبشر ويستطيع فرضَ مصالح القوى التي يمثّلها. غير أنّ القوى السياسيّة العربيّة لا تفكّر في هذه المسائل إلاّ عبر الأدوات التي عَلقتْ بأذهانها من المراحل التاريخيّة السابقة. وكي لا نَغْرق في تحليلاتها العقيمة بهذا الشأن، قد يكون من الأجدى استعراضُ ما تفكّر به الحركةُ السياسيّةُ الناشئةُ في العالم، وما قامت به من مهامّ من أجل بلورة رؤية سياسيّة مفتوحةٍ على وسع دائرة النظام الكونيّ الذي يَفْرض شرَّه على العالم.

رؤية الحركة السياسيّة الناشئة في العالم

أَدْركت معظمُ قوى الحركة السياسيّة الناشئة في العالم، من خلال تجربتها القصيرة في مناهضة دكتاتوريّة النظام الكونيّ الجديد (العولمة الليبراليّة) ومؤسّساتها، أنّ التضامن العاطفيّ بين الفئات الشعبيّة محدودٌ بالظرف الذي يَسْتدعي احتجاجًا وتعبيرًا عن المشاعر، في حين أنّ التحرّك الفاعل والمستمرّ يقتضي ارتباطَ المصالح القريبة والبعيدة في مهامّ وأهداف مشتركة. كما أَدركتْ هذه القوى أنّ وعي الألفبائيّات التحريضيّة لا يَفْعل أكثرَ من تنفيس الغرائز ويُقْفل على أصحابها أفقَ التغيير والتطوّر. فالقوى الاجتماعيّة تعي نفسَها عندما تتفاعل بعضُها مع بعض من أجل مصالحها **الخاصّة** وقضاياها **المشتركة**، وعندما تَطْرح على عاتقها تطويرَ طاقاتها في هذا التفاعل وكذلك مشاركتَها في تحمّل المسؤوليّة. وهو وعي مركّب وخاصّ يَكْشف عن مصلحة كلّ فئة من الفئات وفي كلّ مسألة من المسائل، ويَكْشف في

الوقت نفسه عن حلقات الضعف والقوة وعن الحلول والبدائل. وهو وعي نسبيٌّ يَنْمو ويتطوّر بنموّ الحركة وتطوُّرها، إذ لا يوجد في الطبيعة وعي ثقافي مجرّد.

على أثر هذا الإدراك انكبّتْ فِرَقُ العمل، التي تشكّل بمجموعها الحركةَ السياسيّةَ الناشئة، على إنتاج معرفة عينيّة في كلّ ملفّ من الملفّات الكبرى، وبحثتْ في تلك الملفّات عن الحلول والبدائل. فتشكّلتْ رؤيةٌ سياسيّةٌ طُرحتْ للحوار والتبلور مع القوى الاجتماعيّة المختلفة (من مهنيين، وكوادر، ونقابيّين، وشباب، وعاملين في قطاع الثقافة...). كما أَفْضتْ مشاركةُ تلك القوى في التحرّك إلى التالي:

١ ـ تشكيل قوى ضاغطة من قطاعات القوى الاجتماعيّة، يَسْعى كلٌّ منها إلى تحقيق مطالبه الخاصّة، وتسعى جميعُها إلى تطوير حركتها المشتركة من أجل سياسةٍ بديلةٍ تَحْفظ حقوقَها جميعَها.

٢ ـ تشكيل شرعيّة جديدة من المواطنين تتحمّل مسؤوليّتَها في مواجهة شرعيّة السلطات وقراراتها. وقد عملتْ هذه الشرعيّةُ على ملاحقة اجتماعات أصحاب القرار، في عمل تفصيليّ ودؤوب يَهْدف إلى تعطيل إجراءات محدّدة أو انتزاع بدائل معيّنة. كما عملتْ على اتّخاذ قرارات في اجتماعات القمم القاعديّة موازيةٍ لاجتماعات قمم السلطات، تَطْرح فيها سياسةً بديلةً لسياسة السلطة المتحكّمة في مصير البشر.

٣ ـ اعتماد صيغة من العمل المشترك تَخْتلف اختلافًا هيكليّاً عن صيغة الأحزاب والجبهات والتجمُّعات السياسيّة التقليديّة. فالأولويّة في هذه الصيغة هي الالتقاءُ من أجل تنظيم التحرّك في عمل محدّد، مع إتاحة حريّة المبادرة والتنسيق بين آلاف الجمعيّات والتنظيمات، واحترام حقّها في المشاركة المستقلّة في مهمّة دون أخرى. وقد نجحتْ هذه الصيغة بأنْ وَفّرتْ إمكانيةَ التوسُّع الأفقيّ بين أوسع ما يُمْكن من القوى في عملٍ مشترك ومهامّ محدّدة، ووفّرتْ في الوقت نفسه إمكانيةَ التوسُّع العموديّ بين القوى الأكثر تقاربًا. والدلالة المهمّة التي تقوم عليها هذه الصيغةُ هي أنّ تأثير الحركة يَكْمن في تعدّد القوى واختلافها ـ لا في وحدتها ووفاقها، على نحو ما تَطْرح صيغةُ الجبهات والتجمُّعات السياسيّة العقيمة.

٤ ـ توسيع قاعدة التحرُّك والعمل المشترك إلى وسْع الدائرة التي يتحرّك فيها المتحكّمون في مصير الكون. وقد غَيَّرتْ هذه المسألة مستويَيْن من الواقع السياسيّ: فقد بيَّنتْ أنّ المجابهة التي يَفْرضها المتحكّمون على شعب من الشعوب هي حلقةٌ من حلقاتِ فَرْضِ سياسة النظام الكونيّ على شعوب الكون قاطبةً. وبيّنتْ أنّ المجابهة التي يقوم بها شعبٌ من الشعوب دفاعًا عن نفسه هي بحكم الأمر الواقع مجابهةٌ لسياسة النظام الكونيّ، وهو ما يَجْعل مصلحةَ هذا الشعب مرتبطةً ارتباطًا عضويّاً بمصالح الشعوب الأخرى. بيد أنّ هذه المصلحة تحتّم عليه صياغة رؤيته لقضيّته على أساس القاسم المشترك بين الشعوب (إزالة الاستعمار، حقّ تقرير المصير، الديموقراطيّة السياسيّة، نبذ التمييز العنصريّ والدينيّ،...).

هذا الأفق السياسيّ الواسع الذي عَملتْ بمقتضاه الحركةُ السياسيّةُ الناشئةُ في العالم لم يَتْرك حيّزًا لخطابة المدح والهجاء، لأنّ القوى التي تتبنّاه لا تَطْرح على نفسها حلّ مأزق التفاف الجماهير وتوعيتها بالتحريض البائس. فهي تُدْرك أنّ مشاركة القوى الاجتماعيّة مرهونةٌ بقدرة القوى السياسيّة على بلورة رؤية سياسيّة تتّسع لمشاركة تلك القوى الاجتماعيّة على أساس مصالحها الخاصة، وبلورةِ أدوات عمل سياسيّة تَحْتمل حقّ القوى الاجتماعيّة في التعبير عن نفسها وتتيح لها تطويرَ طاقاتها في العمل المشترك.

وعندما قامت الحركةُ السياسيّةُ الناشئةُ بشيء مما يترتّب عليها على هذَيْن الصعيديْن، وجدتْ أمامها حركةً شعبيّةً

في كلّ البلدان لم تكن تتوقّعها. غير أنّ فكرها السياسيّ هو الذي قادها إلى أنّ طاقات المجتمعُ يُمْكنها أن تشكّل شرعيّةً سياسيّةً ديموقراطيّةً في مواجهة دكتاتوريّة سلطات القرار.

وبالمقارنة مع ما فعلته القوى السياسيّةُ العربيّةُ أثناء المجازر في فلسطين، فإنّ هذه الحركة السياسيّة الناشئة في العالم شَقّت طريقًا آخر أمام القضيّة الفلسطينيّة، على الرُّغم من أنّ قضيّتها المركزيّة هي مجابهة العولمة الليبراليّة. والأصحّ أن نقول إنّها استطاعت أن تشقّ طريقًا آخر **لأنّ** قضيّتها المركزيّة هي مجابهةُ العولمة الليبراليّة، إذ أخذتْ قضيةُ الشعب الفلسطينيّ موقعَها الطبيعيّ في الصراع لمجابهةِ ما تَحْمله سياسةُ النظام الكونيّ من تكريسِ استعمار فلسطين وتعزيزه بالسيطرة على منطقة الشرق الأوسط. وقد سَمحتْ هذه الطريقُ بتحقيق قفزة نوعيّة في مجتمعات معادية لم تَسْتطع القوى العربيّةُ تحقيقَها في مجتمعاتها المتحرّقة إلى مساندة القضية الفلسطينيّة:

أ ـ فقد كَسَرت امتيازَ «الاستثناء» الإسرائيليّ الذي عَملتْ له الصهيونيّةُ العالميّةُ طوال خمسين سنةً وحَرصتْ على ابتزازه في أجهزةِ الدول والمؤسسات بحجّة المحرقة النازيّة. وقد أتاح ذلك رؤيةَ بعض وجوه الاستعمار الإسرائيليّ، ووَضَعَ إمكانيةَ معاقبةِ إسرائيل خارج نطاق المحرّمات وخارج نظام القيم الأخلاقيّة الذي أقامته أجهزةُ الدول بحجّة «معاداة الساميّة.»

ب ـ سارت على طريق التأثير في الرأي العامّ العالميّ عبر العمل الدؤوب مع قطاعات القوى الاجتماعيّة ومع مواطني الأحياء والمناطق، لصالح القضيّة الفلسطينيّة. ذلك أنّ طريق التأثير في الرأي العام العالميّ ليست أُحجيّةً غامضةً كما يتوهّم خطباءُ السياسة العربيّة. فهذا الرأي العامّ ليس جسمًا موحّدًا يهبّ بتأثير النَّدْب واستجداءِ المحبة، ولا بدعةً من بدع الإعلانات في الصحف العالميّة الكبرى، بل هو قبل هذا وذاك نسيجٌ من الفئات المختلفةِ الحساسيّاتِ التي لا يُمْكن التأثيرُ فيها بتعويذة واحدة. وقد أَثّرت الحركةُ السياسيّةُ الناشئة في هذه الفئات بحكم تعدّد اهتمامات تلك الحركة، وبحكم تعدُّد مستويات خطابها السياسيّ.

ج ـ أَنشأتْ إطاراتِ عملٍ رحبةً لانخراط الجاليات العربيّة في عمل مشترك مع المواطنين الآخرين، وهو ما أَسْهم في فكّ طوق التهميش السياسيّ الذي تعيشه هذه الجاليات. كما أثّر في مرشّحي الأحزاب، إذ راح معظمُهم يَعدّ أصواتَ الناخبين الجدد (المواطنين العرب) ويحاول التقرُّبَ منهم متوسِّلاً القضيةَ الفلسطينيّة! ولا شكّ أنّ تطوّر هذه الآليّة من شأنه أن يغيِّر الكثيرَ من دور المواطنين الجدد ومن السياسة الرسميّة، نظرًا إلى طبيعة العمليّة الإنتخابيّة في القرار السياسيّ.[1]

د ـ شَدّتْ من أزر الشعب الفلسطينيّ بانتقال بعض الناشطين الأوروبيّين والأميركيّين إلى أرض المعركة، وحمايةِ ما أَمْكن من الرموز والأرواح والمنشآت. وإلى جانب ذلك تشكّلتْ لجانُ الأحياء في كلّ مكان للدعم والتوأمة وإقامة الاجتماعات العامة. وتشكلتْ لجانُ التنسيق في معظم المناطق، وبدأتْ تَبْحث عن طُرق للضغط من أجل تغيير سياسة الدول الغربيّة عامةً والاتحاد الأوروبيّ خاصّة.

١ ـ المؤسف أنّ وسائل الإعلام العربيّة لم تَعْمَلْ على التقرّب من نشاطات الحركة السياسيّة الناشئة وهيكليّتها التنظيميّة. وقد أَوْحَت بأنّ النشاطات هي من فعل الجاليات العربيّة والإسلاميّة تحديدًا. والحال أنّ الإسلاميين اشتركوا في المظاهرات وفي بعض النشاطات الأخرى، لكنّ هذه المشاركة لم تؤثّر في دفع الانعطافة المهمّة التي حدثتْ في تلك المجتمعات بفضل نشأة القوى **الأخرى**، وبفضل بطولة الشعب الفلسطينيّ في المقام الأول؛ بل ربّما أَسْهمت المشاركةُ «الإسلامويّة» في زيادة تهميش دور الجاليات الإسلاميّة.

كلُّ هذا النشاط مازال في بدايته. غير أنّه نجح في إرساء بعض الأسس المهمّة على طريق عولمة القضيّة الفلسطينيّة وجعلها بين أيدي المواطنين موضوعًا قائمًا من الموضوعات السياسيّة الكبرى في كلّ بلد من البلدان. العقبة الكبرى أمام تطوّره وتحوُّلِه إلى فعل سياسيّ مؤثِّر هي غيابُ التيّارات السياسيّة في البلدان **العربيّة**، وعدمُ اهتمامها بالتفاعل مع الضفّة الأخرى على أرضيّة العمل المشترك ووحدةِ الأهداف. فالحركة السياسيّة الناشئة في العالم لا يسعها أن تَخْلق حركةً سياسيّةً في البلدان العربيّة، كما لا يسعها أن تَعْمل في بلدانها على أرضيّة سياسيّة تخصّ بلدانَها فقط، ولا تستطيع تجاوزَ السقف السياسيّ العامّ المطروح عمليّاً في المنطقة العربيّة. ولكي يُمْكنها تطويرُ تحرّكها، فإنّها تحتاج إلى تيّار عربيّ تَسْتند عليه وتسانده في سبيل تحقيق أهداف مشتركة، وتحتاج إلى خطاب سياسيّ مشترك تتفاعل فيه الأطراف كلٌّ في موقعه. وهذه الرؤية السياسيّة هي المعضلة الكبرى في الجانب العربيّ.

بالأمس قبل الانحسار والحصار

أثناء «الصحوة الوطنيّة» لم تكن القوى السياسيّةُ العربيّةُ بهذا الحجم من الإدقاع السياسيّ. فعندما هُزمت الأنظمةُ العربيّة عام ٦٧، انكبّ الناشطون والكوادر السياسيّة على تقويم سلطة الأنظمة وأسبابِ الهزيمة، وأخذوا يبحثون عن سبل تحرّر البلاد العربيّة أسوةً بحركات التحرّر الكبرى. وقد شكّل هذا الاهتمامُ الفكريّ قاعدةَ رؤية سياسيّة مستمدّة من رؤى حركات التحرّر تلك. صحيحٌ أنّه حَكَمَتْ تلك الرؤيةَ شوائبُ الترجمة والتأويل، بيْد أنّها شكّلتْ جسرًا للتأثير في كلّ القوى السياسيّة العربيّة. في تلك المرحلة بلور النشاطُ الفكريُّ عناصرَ رؤيةٍ سياسيّةٍ في ترابط المسألة الوطنيّة والقضايا الاجتماعيّة، وفي ترابط القضيّة الفلسطينيّة وقضايا تحرّر المجتمعات العربيّة من التبعيّة والتخلّف. وعلى أساس هذه العناصر العامّة جداً نَشطت الحركةُ السياسيّةُ العربيّةُ باختلاف تيّاراتها، وإلى جانبها نشطت القوى الاجتماعيّةُ المتعدّدةُ في كلّ البلدان العربيّة.

هذه التجربة السياسيّة تَسْتدعي بطبيعة الحال إعادةَ تقويمٍ وتحليلٍ على ضوء الهزائم التي تكبّدتْها، وعلى ضوء طبيعة المرحلة التاريخيّة الحاليّة (العولمة ونهاية صراع القوميّات). غير أنّها أَنْتجتْ قفزةً نوعيّةً في الوعي السياسيّ العامّ قياسًا إلى الوعي السياسيّ الذي كان مطروحًا قبل هزيمة الأنظمة، وقياسًا أيضًا إلى الوعي السياسيّ الحاليّ. فقد أَنْتجتْ قاسمًا مشتركًا وصياغةً ثالثةً لرؤية الأحزاب الوطنيّة بشأن مسألة التحرّر، ولرؤية الأحزاب الشيوعيّة بشأن المسألة الاجتماعيّة ونظام الحكم. لكنّ الأهم من ذلك أنّها جعلت السياسةَ شأنًا عامّاً يفكّر فيه الكبارُ والصغارُ. وقد شَرَعَ الشبابُ والأقلُّ شبابًا في تشكيل الجمعيّات والتنظيمات ولجان الأحياء، وأخذوا يتدرّبون ويطوِّرون طاقاتهم، وطَرَحوا على عاتقهم مسؤوليةَ انتزاع مطالبهم والإسهام في تغيير الواقع، فسَقطتْ بذلك أوهامُ الاعتماد على بطولات خارقة تحقّق لهم آمالَهم مقابلَ الطاعة والدعاء.

لم تستطع القوى السياسيّةُ العربيّةُ تطويرَ رؤيتها السياسيّة بما يؤدّي إلى ارتقاء «الصحوة الوطنيّة.» ولم تَعْمل على تنمية فكرها السياسيّ. كما ظَنَّتْ أنّها «خَتَمَت العِلْم» بالعناصر التي تَحْملها، وأنّه لم يَعُدْ يَنْقصها غيرُ توعيةِ الجماهير بها وتحريضِها على النهوض. فأَوْكَلَتْ هذا الأمرَ إلى خطباء السياسة وإلى العاملين في القطاع الثقافيّ كي يَنْشروا الوعيَ ويحدِّثوا الهِمَمَ. ولم يَعُدِ القطاعُ الثقافيُّ ـ والحالةُ هذه ـ قطاعًا مهمّاً من قطاعات القوى الاجتماعيّة الأخرى، له اهتماماتُه الخاصّة ومطالبُه الخاصّة ورؤيتُه الخاصّة، بل حَلَّقَ بقدرةٍ قادرٍ فوق كلّ القوى الاجتماعيّة يَحْمل لها الوعيَ الذي «تَفْتقده.»

الشارع في فرنسا وغيرها هو اليوم شارع «عربيّ» حيويّ أكثر من أيّ شارع في البلدان العربيّة

مَجَّدَ العاملون في القطاع الثقافيّ ما أُنْزِل عليهم من رسالة سماويّة (فتداولوا مصطلحاتٍ من نوع «مثقف الجرثومة الثوريّة،» و«المثقف العضويّ،» و«المثقف الذي يَقْبض على الواقع...») وأثْروا ـ ومازلوا يؤثّرون ـ في القوى الاجتماعيّة وفي القوى السياسيّة بوعيهم لاهتماماتهم الثقافيّة.[1] وأدّى تأثيرُ هذا الوعي الجامح إلى تقليل وعي القوى الاجتماعيّة بنفسها، وبأهميّة تطوير طاقاتها، وكذلك بقدرتها على حلّ مشاكلها ومشاكل المجتمعات إذا استطاعت أن تتفاعل بعضُها مع بعض.

لقد أصبح هذا الوعي هدفًا في حدّ ذاته، وتجنَّدت القوى السياسيّةُ لخدمته وبات مبرِّرَ وجودها. فاحتلّ مكانَ الرؤية السياسيّة التي يُفْترض أن تقوم عليها القوى السياسيّةُ، ومازلنا نَشْهد مآثرَه في كلّ تحرُّكات القوى السياسيّة والنشاط العامّ. وفي خلفيّة هذا الوعي البائس أنّ البشر لم يَبْلغوا من النضج ما يَجْعلهم يغيِّرون واقعَ المصائب والنكبات التي يعيشونها في حياتهم اليوميّة، بل يحتاجون إلى مَنْ «يَسْتنهضهم» ويحرِّضهم لتغيير الواقع بما يُتْلى عليهم من توعية وتثقيف ونصح وإرشاد.

هذه الآليّة هي في واقع الأمر دعوةٌ إلى الموت واقفين، يتبنّاها دعاةُ «الصحوة الإسلاميّة»... أو هي دعوة إلى الموت راكعين، يتبناها دعاةُ «الصحوة الديموقراطيّة» الذين يبشِّرون بالسلام والتسامح وغير ذلك. غير أنّ مبرِّر وجود القوى السياسيّة، وكذلك قوى النشاط العامّ الأخرى، يَقْتضي منها أن تَعْمل على فكرها السياسيّ لبلورة أدوات عمل تتيح للقوى الاجتماعيّة فتحَ طريق أمام حياةٍ أرقى من المستقبل الذي يَعِدُها به أعداؤها.

عناصر لرؤية سياسيّة

بقليلٍ من المبالغة يمكن الادّعاءُ أنّ القوى السياسيّة العربيّة وقوى النشاط العامّ الأخرى لا تَسْعى إلى بلورة رؤية سياسيّة تتلاءم مع طبيعة المرحلة التاريخيّة ومع المهامّ المطروحة على عاتقها. وأبْرز هذه المهامّ:

ـ نسج الترابط بين هذه القوى السياسيّة العربيّة وقوى النشاط العامّ. فكلُّ مزارع في هذه المنطقة، وكلُّ شابّ وعامل، وكلُّ مَنْ يَطْمح إلى الدفاع عن حقوقه وحقوق الإنسان، معنيٌّ بمجازر الإبادة التي يَرْتكبها الاستعمارُ الصهيونيّ في فلسطين، مقدِّمةً لتوطيد أواصر نظام العولمة الليبراليّة في المنطقة العربيّة ولإنجاز السيطرة الإسرائيليّة المنخرطة في استراتيجيّة مصالح الشركات المتعدّية الجنسيّة.

ـ إنشاء تنسيق بين القوى السياسيّة العربيّة لبلورة رؤية سياسيّة مشتركة.

ـ التفاعل الخلاّق بين القوى السياسيّة العربيّة والحركة السياسيّة الناشئة في العالم. فالشارع في فرنسا وألمانيا وبلجيكا وبريطانيا وغيرها هو اليوم شارع «عربيّ» حيويّ أكثر من أيّ شارع في البلدان العربيّة، وهو يحتاج إلى تيّارات عربيّة تتفاعل معه في رؤية سياسيّة مشتركة لكي يتمكّن من التأثير في مركز القرار.

وختامًا، فإنّ الكثير من القوى السياسيّة العربيّة يتمتّع بقدرة معقولة على الحركة، وبصدقيّةٍ تؤهّله للاضطلاع بما يؤثِّر في موازين القوى وبما يَدْفع إلى بلورة رؤية سياسيّة. غير أنّ هذه المهمة الشاقة تَقْتضي منطوقًا سياسيّاً خاصّاً بها، وأدواتٍ معرفيّةً مغايرةً لما يشاع في المنطقة العربيّة من تقاليد العمل السياسيّ.

باريس

١ ـ يتّفق رجالُ الدين ومثقفو «الصحوة الإسلاميّة» من جهة، ومثقفو التيّارات الديموقراطيّة والعلمانيّة من جهة أخرى، على أنّ مهمتهم هي توعيةُ البشر، وأنّ ما يَحْملونه من وعي بالأمور هو التّرياقُ الشافي لكلّ العلل والمشاكل. غير أنّ هذا الوعي يتضمّن أيضًا أنْ **لا** تصل إليه القوى الاجتماعيّةُ المستهدفة بذلك الوعي: فهو حَبْلٌ من مسد يَقْتضي أن يظلّ هدفًا بعيدًا تسعى إليه.